التفسير السياقي والوظيفي
لأهل البيت عليهم السلام

سلسلة البحوث والندوات

2

سلسلة البحوث والندوات

2

التفسير السياقي والوظيفي لأهل البيت عليهم السلام

■ فاطمة المرشود

مركز البحوث والدراسات القرآنية
دوحة القرآن الكريم - سيهات

موقع معارف القرآن الكريم
www.maarefq.com

الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م

هوية الكتاب:

* الكِتاب : التفسير السياقي والوظيفي لأهل البيت عليهم السلام.

* المؤلف: فاطمة المرشود.

*الناشر: مركز البحوث والدراسات القرآنية/ دوحة القرآن الكريم - سيهات.

موقع معارف القرآن الكريم
www.maarefq.com

التنسيق والإخراج الفني: الكليم للتصميم:

نقال: 36778827 973+

البريد الإلكتروني:

mohd.he@gmail.com

التفسير السياقي والوظيفي
لأهل البيت عليهم السلام

المقدمة

أستاذة التدبر: فاطمة المرشود.

رغـم الجهـود التـي بذلت لخدمـة القـرآن الكريم إلا أن هنـاك مجـالات بحاجـة إلى بحـث وتحقيـق كبيريـن ومـن هـذه المجـالات والحقـول: الحقـل الروائـي فقـد عبّد علماؤنـا السـابقون الطريـق لنا من خـلال جمـع و ترتيـب الروايات التفسـيرية مما شـكّل قاعـدة للانطـلاق لفهم القـرآن ووعيه، ولعل المسـألة الأهـم في هـذا الحقل هـي عمليـة اكتشـاف الأدوات والمفاتيـح التـي تسـاهم في عمليـة تفسـير القـرآن

الكريم وللقيام بهذه العملية تارة يتم من خلال رواية واحدة، وتارة أخرى يتم من خلال مجموعة كبيرة من الروايات، تماما مثل ما يصنع الفقيه في ظفره بقاعدة فقهية فإنه تارة يستنبطها من رواية واحدة وأخرى من خلال البحث في المصاديق والتجليات والأحكام المتعددة. وبكلمة واحدة إن الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في حقل تفسير القرآن الكريم فيها ما يعالج النص الجزئي ويقوم بتفسيره وتوضيحه، وهناك قسم آخر وهو (مورد بحثنا) ما يضع بأيدينا مفاتيح تفسير القرآن الكريم وبيانه وفي هذه الدراسة المختصرة نسلط الضوء على مفتاح من المفاتيح التي استفدناها من الروايات ألا وهو التفسير السياقي والوظيفي.

التعريف و التوصيف

في البداية لا بد أن نشير إلى معنى السياق وهو عبارة عن الجو العام الذي وردت فيه الكلمة أو الجملة وما يكتنفها من قرائن ودلائل لفظية تكشف عن المعنى المراد.

ونطلق على هذا الأمر«التفسير الوظيفي» باعتبار أن كل كلمة تؤدي وظيفة معينة ضمن النص ويسمى كذلك «معنى تركيبي»؛ لأن المعنى يتركب من تراكيب تلك الكلمات والجمل.

وفي كثير من الأحيان لا يسعفنا المعنى المعجمي للكشف عن دلالة الكلمة أو الجملة، مما يعني ضرورة الاتكاء على السياق للكشف عن المعنى، ففي قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[1] و هي آية من سورة الدخان التي يقول الله تعالى ضمن سياقها: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ، طَعَامُ الْأَثِيمِ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ، خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ، ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.[2]

نجد أن السياق يخرج معنى قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾؛ بمعنى الذليل الحقير.

ويقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي

١- سورة الدخان، الآية: ٤٩.

٢- سورة الدخان، الآية: ٤٣-٤٩.

الأَرْضِ حَـلاَلاً طَيِّبـاً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّـيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَـدُوٌّ مُّبِـينٌ﴾.[1]

خـرج معنى فعـل الأمـر ﴿**كُلُـواْ**﴾ إلى الإباحة في الأكل ومـا خـرج المعنـى عـلى هـذا النحـو إلا لدلالة السياق.

كـما يمكـن أن تـدل كلمـة الأكل عـلى معنـى مختلـف تمامـاً عـن المعنـى المعهـود و المتعـارف عليـه، والدليـل إلى معرفـة الكلمة سـياق الآية أيضـا، كقوله تعـالى: ﴿**وَلاَ تَأْكُلُـواْ أَمْوَالَكُـم بَيْنَكُم بِالْبَاطِـلِ وَتُدْلُواْ بِهَـا إِلَى الْحُـكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّـنْ أَمْوَالِ النَّـاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُـمْ تَعْلَمُـونَ﴾**.[2]

فبعـد معرفـة السـياق توصلنا لمعنـى الأكل وهو

١- سورة البقرة، الآية: ١٦٨.

٢- سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

عمـوم التـصرف في أمـوال النـاس بغـير وجـه حـق.

ولـذا قال الزركـشي: «دلالة السـياق فإنها ترشـد وتبـين المجمـل والقطـع بعـدم احتـمال غـير المـراد وتخصيـص العـام وتقيـد المطلق وتنـوع الدلالـة وهو مـن أعظـم القرائـن الدالة عـلى مـراد المتكلـم».[1]

وواضـح أن الوصـول إلى هـذه المعـاني وهـي التبيـان المجمـل ودفـع الاحتـمالات الأخـرى وتخصيص العـام... وما إلى ذلـك، لا يمكن الوصول إليـه بمراجعـة المعنـى المعجمي؛ إنـما يتسـنى لنا ذلك مـن خـلال الدلالـة الوظيفيـة والدلالـة السـياقية.

١- الزركشي/ البرهان في علوم القرآن/ ج٢/ ص٢٠٠.

نظرة في النشأة

برع الهنود في علم اللغة والكشف عن المعاني وكان مما أشاروا إليه في اكتشاف المعنى هو اعتماد السياق.[1]

وفي الواقع إن الاعتماد على قضية السياق لكشف المعنى مسألة عقلائية قد سار عليها العقلاء في إيصال المعاني .

وهل تعلمنا اللغة من غير السياق !

١- الدكتور أحمد عمر/ علم الدلالة/ ص ١٩.

لـو بحثنـا عن أول يـوم تعلمنا فيه اللغـة لعرفنا أن السـياق أول سـبيل لتعلـم اللغـة، فالوالـد عندمـا يسـتخدم لفـظ العصـا حـين يتكلـم عـن الـضرب، فنعرف أنها وسـيلة للـضرب، والوالدة تسـتخدم لفظ الولاعـة عندمـا تتكلـم عن الطبـخ فعرفنا أنها وسـيلة إشـعال النـار. ولا ريـب أن وجـود اللفـظ في إطـاره المناسـب يوحـي بمعنـاه، ربـما أكثـر من تفسـير اللفظ بـدون سـياق يحـده. والقـرآن الحكيـم ذلـك الكتاب البليغ، يناسـب بين المفـردات في إطار السـياق بحيث يصعـب عليـك تبديـل لفظـة بأخـرى دون أن تـضر بتناسـب الكلمات.

لذلـك يهدينـا السـياق ذاتـه إلى المعـاني الدقيقـة للكلـمات؛ لأنهـا وضعـت في موقـع متناسـب جـداً مـع تلـك المعاني، فـإذا أردنـا أن نعـرف بالدقـة معنى

اللفظ كان علينا مراجعة ما قبلها و ما بعدها، لمعرفة ما يتناسب معها من معنى لهذه الكلمة، فمثلا لو أردنا أن نكتشف معنى «قصد» في قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[1]، لو أردنا ذلك قارنا بين القصد، والجائر، والهداية فنعرف معنى القصد، لأنه جاء في مقابل الجائر الذي يعني المائل، فالقصد هو المستقيم، والجائر هو الظالم فالقصد هو العادل.

أو إذا أردنا التعرف على معنى «نفش» في هذه الآية: ﴿**وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ**﴾[2]، لو أردنا ذلك لم يكن علينا إلا قياس كلمة نفشت

١- سورة النحل، الآية: ٩.

٢- سورة الأنبياء، الآية: ٧٨.

بالحرث والغنم والحكم، مما نعرف إنه إتلاف الحرث، وهكذا.

لقد جاء رجل إلى صحابي فسأله عن معنى «الأب» الذي جاء في الآية الكريمة: ﴿**وَفَاكِهَةً وَأَبّاً**﴾، فلم يعرفه. وجاء علي عليه السلام وقال: أن معنى اللفظ موجود في الآية ذاتها؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ، مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ**﴾[1]،[2].

وقد واصل علماء الإسلام الاعتماد على القرينة السياقية للكشف عن معاني القرآن الكريم، فهذا ابن جرير الطبري وهو من أقدم المفسرين اعتمد السياق وقدمه على غيره وقرره بقواعد مهمة في

١- سورة عبس، الآية: ٣١،٣٢.

٢- المدرسي/ بحوث في القرآن الكريم/ ص٣٤،٣٣.

التفسير، وقد درس عبد الحكيم القاسم منهجه في السياق دراسة مستقلة، حيث يقول: «لقد كانت القواعد التي سار عليها الإمام فيما يخص بحث هذه الرسالة، وهو ما يتعلق بدلالة السياق القرآني حسب حصري لها: تسع قواعد، جمعت في هذا الباب، واختصت كل قاعدة بمبحث، محاولة لتأصيل وتقعيد منهج ابن جرير رحمه الله في التعامل مع السياق، وهي كالتالي:

الأولى: الكلام على اتصال السياق، ما لم يدل دليل على انقطاعه .

الثانية: إذا تتالت كلمتان، والثانية نعت فإنها تحمل على سابقتها.

الثالثة: أولى تفسير للآية ما كان في سياق السورة.

الرابعة: النظر إلى ابتداء الآيات معين على معرفة مناسبة خاتمتها.

الخامسة: إذا لزم من تفسير الآيات التكرار الذي لا معنى له، فذلك خُلفٌ ينزه القرآن عنه. السادسة: يختار من المعاني ما اتسق وانتظم معه الكلام؟

السابعة: تعيين من نزل بهم الخطاب لا يعني تخصيصهم، بل يدخل من يشابههم. **الثامنة**: الأولى في التفسير أن يكون الوعيد على ما فتح به الخبر من الفعل المذكور السابق. **التاسعة**: لا يفسر السياق إلا بالظاهر من الخطاب.

أيضاً من العلماء الذين اعتمدوا السياق في بيان المعنى: الراغب الأصفهاني في (مفردات ألفاظ

القـرآن) ويعتبر الراغب الأصفهـاني من أبرز المفسرين وأهـل اللغـة عناية ببيـان السـياق القـرآني، من خلال كتابـه المفـردات ، وذلك أنه يجمع الكلـمات الغريبة في القرآن ويبين معناها حسـب سـياقها الذي وردت فيه.

وقـد أثنـى الزركـشي عـلى منهجه وهـو يتحدث عـن تفسـير بعـض آيـات القـرآن التـي لم يـرد فيهـا نقـل، حيث قـال: «وطريـق التوصل إلى فهمـه: النظر إلى مفـردات الألفـاظ مـن لغـة العـرب، ومدلولاتها، واسـتعمالاتها، بحسـب السـياق، وهـذا يعتنـي بـه الراغـب كثـيراً في كتـاب (المفـردات)، فيذكـر قيـداً زائـداً عـلى أهـل اللغة في تفسـير مدلـول اللفـظ؛ لأنه اقتنصـه مـن السـياق»[1].

١- الزركشي / البرهان في علوم القرآن/ جـ٢/ ص١٧٢ .

قبل التأمل في السياق

لا بد من التجرد من موحيات المناخ الفكري، أي أن نمحو جميع التصورات والأفكار السائدة في المجتمع أو القابعة في الذهن، فأحيانا قد لا يدل ظاهر الآية القرآنية أو السياق على المعنى المتصور في الذهن. على سبيل المثال عندما نأتي لقوله تعالى: ﴿**أَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ ..**﴾[1]، في الآية أمر من نبي الله شعيب عليه السلام لقومه بإيفاء الكيل والوزن عند البيع والشراء.

١- سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]، عندما يكون الميزان في يوم القيامة، ومن يوزن الأعمال هو الله تعالى عندئذ يكون لمعنى الميزان معنى مخالف للمعنى الدنيوي والمادي، ولمعرفة المعنى الحقيقي ينبغي التجرد من موحيات المناخ الفكري وعدم قياس كل ما في عالم الوجود بالآخرة.

وللإيضاح نذكر هذه الرواية :

في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل وفيه: قال السائل: أو ليس توزن الأعمال؟ قال عليه السلام: لا.

لأن الأعمال ليست بأجسام وإنما هي صفة ما عملوا، وإن من يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد

١- سورة الأعراف، الآية: ٨ .

الأشياء ولا يعرف ثقلها وخفتها، وإن الله لا يخفى عليه شيء، قال: فما معنى الميزان؟ قال: العدل، قال: فما معناه في كتابه: فمن ثقلت موازينه؟ قال: فمن رجح عمله[1].

١-الحويزي/ تفسير نور الثقلين/ ج٢/ سورة الأعراف/ ح١١.

التفسير السياقي والوظيفي

أمـام المفـسر أو الباحـث الـذي يبحث في تفسـير الكلـمات أو الجمـل القرآنيـة طريقـان:

إمـا أن يبحـث عن المعنـى في كتب معاجـم اللغة العربيـة التـي تبحـث في معنـى اللفظـة القرآنيـة مـن غـير مراعاة للمعنى الـذي يريده الله عـز وجل، أو أن يرجع لسـياق الآية أو الآيـات القرآنيـة ليعرف المعنى المقصـود بدقـة، وبالطبـع الطريقـة الثانية هـي الأمثل وقـد اتبـع أهـل البيـت عليهم السلام نفـس الطريقـة وهـي

اعتماد السياق في بيان المعنى.

وفي بيان الطريقتين نذكر هذا المثال:

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾.[1]

عند الرجوع للمعاجم اللغوية لمعرفة معنى الفتنة الواردة في الآية نجد أنها كلمة تدل على الابتلاء؛ فالفتنة: الفاء والتاء والنون أصلٌ صحيح يدلُّ على ابتلاء واختبار، وفَتَنْتُ الذّهبَ بالنّار، إذا امتحنتَه.[2]

١- سورة آل عمران، الآية: ١٧.

٢- ابن فارس/ معجم مقاييس اللغة/ باب الفاء/ كلمة الفتنة.

إلا أنه عند الرجوع للسياق تأخذ الفتنة معنى مختلف عن الابتلاء وهي الكفر، فقد ورد في مجمع البيان أن المراد من الفتنة هنا الكفر وهو المروى عن أبى عبد الله عليه السلام.[1]

وأيضا من أبرز الأمثلة على استخدام أهل البيت عليهم السلام للسياق في بيان المعنى عندما جاء رجل إلى صحابي فسأله عن معنى «الأب» الذي جاء في الآية الكريمة ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبّاً﴾، فلم يعرفه. وجاء علي عليه السلام وقال: أن معنى اللفظ موجود في الآية ذاتها؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبّاً، مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾.[2]

في حين عندما لا ينظر إلى السياق يكون معنى الأب

١- ١٨ الحوزوي/ تفسير نور الثقلين/ سورة آل عمران / ج١ / ح١٧.
٢- سورة عبس، الآية: ٣١،٣٢.

هـو أب الإنسـان لا طعـام الأنعام الذي بينه السـياق.

و الشـواهد عـلى اسـتخدام أهـل البيـت عليهم السلام للتفسـير السـياقي و الوظيفـي كثـيرة جـداً ومنوعـة نـورد بعضـاً مـن أنواعهـا:

التفسير السياقي الخاص

هو تفسير سياقي مختص بالرسول والإمام المعصوم، ولا يمكن لعامة الناس معرفته أو التوصل إليه؛ لأنه من العلم الذي أختصه الله لنفسه ولرسله وأوليائه قال تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً**﴾[1].

وبعد معرفة التفسير منهما يمكن معرفة صحته لتناسبه مع سياق الآيات أو الروايات الأخرى أو

١- سورة الجن، الآية: ٢٦،٢٧.

الأحداث الجارية إذا كان فيه إخبار عن المستقبل الذي علمه عند الله تعالى.

من أمثلة هذا النوع من التفسير الذي يعرفه الإمام المعصوم ونتوصل بصحته من موافقته لسياق الآيات الكريمة وموضوع السورة نذكر هذه الرواية :

في تفسير الإمام أن معنى الم : «إن هذا الكتاب الذي أنزلته هو الحروف المقطعة التي منها ألف لام ميم، وهو بلغتكم وحروف هجائكم فاتوا بمثله إن كنتم صادقين»[1].

وهو تفسير يناسب سياق الآيات وموضوع سورة البقرة الذي جاء يثبت موضوع الإيمان وينفي النفاق والكفر.

١- الكاشاني/ تفسير الصافي/ ج١/ ص ٩١.

السياق المعجمي

أي أن يكـون سـياق الآيـة في الكلمـة المـراد معرفتهـا كالمعجـم اللغـوي، ويكـون عـلى نوعـين:

١ - سياق يبين مرادف الكلمة أو الآية .

وفي هـذا النـوع يكـون المعنـى واضح مـن خلال طـرح كلـمات مرادفة تبـين معنـى الكلمـة الصعبة.

مثالـه : قـول الله تعـالى: ﴿**اللَّهُ يَتَـوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَـا وَالَّتِـي لَمْ تَمُـتْ فِي مَنَامِهَـا فَيُمْسِـكُ الَّتِـي قَـضَى عَلَيْهَـا الْمَـوْتَ وَيُرْسِـلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَـمًّى إِنَّ فِي**

ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

عندما نريد أن نعرف ما معنى الوفاة في الآية الكريمة نجد بأن الآية توضح المعنى وتشرحه بكلمات مرادفة، فمعنى **﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾**، هي **﴿الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾**.

فمعنى الوفاة مختلف عن معنى الموت فالوفاة من الموافاة وهو اللقاء وهي مرحلة زمنية يمر بها كل إنسان عند خلوده للنوم والراحة ويعود الشخص إلى اليقظة من نومه إذ لم يحين موعد أجله أما إذا حان موعد أجله وقت النوم فسيمسك الله عز وجل روحه ويموت.

وفي تفسير هذه الآية نذكر رواية في مجمع البيان، روى العياشي بالإسناد عن الحسن بن

١- سورة الزمر: الآية: ٤٢.

محبوب عن عمرو بن ثابت عن أبي المقدام عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما من أحد ينام إلا عرجت نفسه إلى السماء، وبقيت روحه في بدنه، وصار بينهما سبب كشعاع الشمس، فإن أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس، وإن أذن الله في رد الروح أجابت النفس الروح، وهو قوله سبحانه: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**...﴾ الآية؛ فمهما رأت في ملكوت السماء والأرض فهو مما يخيله الشيطان ولا تأويل له.[1]

وفي هذه الرواية تفسير يوافق سياق الآية لأن سياق الآية فيه شرح لكلمة الوفاة أي تفسير بإعطاء مرادف الكلمة .

إلا أن الرواية أعطت مزيد من الإيضاح وهو

١- الحويزي/ تفسير نور الثقلين/ ج٤/ ح٥٦.

أنه عند النوم يتوفى الله فقط النفس ولا يتوفى الروح، بينما في الموت فإن الله يتوفى النفس ويمسك الروح معها أيضاً، وهذا الفارق بين الاثنين، وإن سر الحياة في الروح وليس النفس.

٢- سياق يعطي تضاد الكلمة

وفي هذا السياق نتعرف على المعنى من خلال ذكر تضاد الكلمة وهي طريقة من الطرق التي يستخدمها القرآن لإيضاح المعنى، نذكر على سبيل المثال: قوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى* وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى**﴾[1].

كي نتعرف على معنى ﴿**ضَالًّا**﴾ أوردت الآية ضد الكلمة، وهي ﴿**فَهَدَى**﴾، ولبيان معنى كلمة ﴿**عَائِلاً**﴾ أوردت الآية تضاد الكلمة السابقة وهي

١- سورة الضحى، الآية: ٧،٨.

﴿فَأَغْنَى﴾، ولبيان المعنى الحقيقي للسياق نورد روايات أهل البيت عليهم السلام:

ففي تفسير علي بن إبراهيم عن أحمد بن أبي عبد الله عن أبيه عن خالد بن يزيد عن أبي الهيثم الواسطي عن زرارة عن أحدهما عليه السلام في قول الله: «ألم يجدك يتيما» فأوى إليك الناس «ووجدك ضالا فهدى»؛ أي أهدى إليك قوماً لا يعرفونك حتى عرفوك ووجدك عائلاً فأغنى؛ أي وجدك تعول أقواماً فأغناهم بعلمك.

وفي عيون الأخبار في باب ذكر مجلس الرضا عند المأمون في عصمة الأنبياء عليهم السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام للمأمون وقد قال الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «ألم يجدك يتيما فآوى» يقول: ألم يجدك وحيدا فآوى إليك الناس، «ووجدك ضالا»:

يعنى عند قومك «فهدى» أي هديهم إلى معرفتك، «ووجدك عائلا فأغنى»، يقول: بأن جعل دعاك مستجاباً، قال: المأمون بارك الله فيك يا ابن رسول الله.[1]

وفي هذه الروايات يتضح ضلال كل من ابتعد عن أهل البيت عليهم السلام، لأنه لو فسر الآيات بحسب سياقها دون الرجوع إلى رواياتهم فسينقص من شأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

فنجد أن الروايات لم تنسب الضلال للرسول وحاشا الله أن يصف رسوله الكريم بهذا الوصف. ففي الرواية الأولى فسرت «ضالاً» بمعنى لا يعرفك قومك ثم منَّ الله عليه بنعمته وأهدى إليه قومه حتى عرفوه.

١- الحويزي/ تفسير نور الثقلين/ ج٥ / سورة الضحى/ ح١٨،١٧.

أما في الرواية الثانية فتفسر الظلال على أنه بحسب ظنَّ قومه، فقد كان عندهم ضالاً لعدم عبادته الأوثان.

أما عائلاً : ففي الرواية الأولى كانت تعني أنه كان قائماً على أمر قومه بتعليمهم فأغناهم الله بعلمه ﷺ.

أما الرواية الثانية فسرت المعنى بأن جُعل دعاء النبي مستجاباً، ولا يقصد به أن دعاءه لم يكن مستجاباً من قبل ومن ثم كان مستجاب ، كلا بل يقصد أن أصبح دعاءه مستجابا بحق قومه.

سياق المثال و التشبيه

إن ضرب الأمثلة والتشبيهات وسائر الفنون البلاغية كالاستعارة والمجاز من الطرق الرائعة والدقيقة أيضاً لتقريب المعنى لذهن القارئ والمستمع.

على سبيل المثال: قوله تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾.[1]

١- سورة الزمر، الآية: ٢٩.

ضرب المثال والتشبيه من الطرق المستخدمة في القرآن الكريم لإيصال المعنى، وبالتمعن في سياق الآيات السابقة واللاحقة يمكن الوصول إلى المعنى الدقيق الذي يريد إيصاله لنا القرآن الكريم.

في هذه الآية يريد الله سبحانه وتعالى أن يوضح حالة الإنسان المشرك و الإنسان المؤمن الموحد لله تعالى.

فحال الإنسان المشرك كحال العبد الذي له أكثر من ولي، وأولياؤه يصفهم القرآن على أنهم متشاكسون أي متباغضون، فإن هذا العبد بينهم لا يشعر بالراحة؛ لأنه لا يستطيع أن يلبي أوامر أولياؤه المتشاكسون الذين يعكرون عليه حياته ويضعونه دوماً في حيرة.

بينما العبد الآخر فيعيش في راحة نفسية؛ لأن

مولاه شخص واحد، يخلص له ويلبي له كل أوامره.

وحال العبد الأول كحال الإنسان المشرك الذي يعيش في دوامة من الفوضى والقلق النفسي، أما العبد الآخر هو كحال الإنسان المؤمن الموحد يعيش سلاماً دائما مع خالقه ويشعر معه بالراحة النفسية.

نذكر بعض الروايات للتعرف على دور أهل البيت عليهم السلام في إيضاح مثل هذا النوع من السياق، في كتاب معاني الإخبار بإسناده إلى عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ألا وإني مخصوص في القرآن بأسماء احذروا أن تغلبوا عليها فتضلوا في دينكم، أنا السلم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله عز وجل: ﴿وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ﴾ والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.[1]

١- الحويزي/ تفسير نور الثقلين/ سورة الزمر/ ج٤/ ح٤٤.

أما في توضيح التشبيه أكثر وبيان تأويله نذكر هذه الرواية:

في روضة الكافي محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن ابن محبوب عن جميل بن صالح عن أبي خالد الكابلي عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، قال: أما الذي فيه شركاء متشاكسون فلان الذي يجمع المتفرقون ولايته، وهم في ذلك يلعن بعضهم بعضاً، ويبرأ بعضهم من بعض، فأما رجل سلم لرجل، فإنه الأول حقاً وشيعته والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.[2]

١- سورة الزمر: الآية: ٢٩.

٢- الحويزي/ تفسير نور الثقلين/ ج٤/ سورة الزمر/ ح٤٣.

أما في توضيح التشبيه نذكر قول على بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره: في قوله عز وجل: ﴿**ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ**﴾[1]، فإنه مثل ضربه الله عز وجل لأمير المؤمنين صلوات الله عليه، وشركاؤه الذين ظلموه وغصبوا حقه، وقوله تعالى: ﴿**مُتَشَاكِسُونَ**﴾ أي متباغضون وقوله عز وجل: ﴿**وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ**﴾ أمير المؤمنين صلوات الله عليه، سلم لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ثم عزى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقال جل ذكره: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ**﴾[2] يعنى أمير المؤمنين صلوات الله عليه ومن غصبه حقه.[3]

١- سورة الزمر، الآية: ٢٩.

٢- سورة الزمر، الآية: ٣٠-٣١.

٣- الحويزي/ تفسير نور الثقلين/ ج٤/ سورة الزمر/ ح٤٧.

سياق المعنى الواحد والمعاني المتعددة

إن تعدد المصاديق دليل على تعدد المعاني الوظيفية للكلمة؛ أي أن السياق واحد و الكلمة هي نفسها إلا أنها تصرف الذهن إلى معاني متعددة، أو قد يكون معنى واحد إلا أن تغير الظروف الزمنية والمكانية يعطي للكلمة أكثر من معنى، وهذا التعدد لا يكون بالطبع إلا في الآيات المتشابهة التي يكون لها أكثر من وجه.

فما هو سر تعدد المعاني الوظيفية للمفردة أو الكلمة؟

السر في تعدد المعاني الوظيفية للكلمة عائد إلى بلاغة القرآن وإعجازه وإيجازه في إيصال كل المعاني بكلمة واحدة، بحيث لا يمكن الحكم على مصداقية معنى دون الآخر فكل المعاني يصدق

عليها القول. أما إذا كان للكلمة معنىً واحد فهذا ليس لأنها تحتمل معنى واحد فقط، بل لأنها قد تحتمل -الكلمة- أكثر من معنى؛ إلا أن روايات أهل البيت عليهم السلام تحدد لها معنى واحد.

كما يمكن أن يكون للكلمة أكثر من معنى عندما يتحدث سياق الآيات بصورة عامة فتتعدد المصاديق.

مثال ذلك كما في معنى الصبر والمصابرة والفارق بين الكلمتين أن الصبر الأول أيسر وأسهل بينما الصبر الثاني فيه مشقة ومجاهدة.

ويكون الصبر على أمور كثيرة كالعبادات بينما المصابرة في مواجهة الأعداء أو في اجتناب المحارم وكل ما يشق على النفس، و(صابر) اسم فاعل

على وزن فاعل مصدر لفعل ثلاثي على وزن فعل (صبر)، أي اصبروا صبراً ملازماً لذاتكم إلى الحد الذي يكون اسم كل واحد منكم صابراً.

أما المرابطة فلها معنى واحد في كافة الروايات وهو المرابطة مع الأئمة عليهم السلام؛ والسبب لأن سياق الآية لا يحتمل إلا معنى واحد، وهو المعنى الذي كان عليه نزول الآية.

نورد بعض الروايات التي وردت في تفسير الصبر والمصابرة والمرابطة :

عن يعقوب السراج قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام، تبقى الأرض يوماً بغير عالم منكم يفزع الناس إليه؟ قال: فقال لي: إذا لا يعبد الله، يا أبا يوسف، لا تخلوا الأرض من عالم منا ظاهر يفزع

الناس إليه في حلالهم وحرامهم، وإن ذلك لمبين في كتاب الله، قال الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ**﴾، اصبروا على دينكم وصابروا عدوكم ممن يخالفكم، ورابطوا إمامكم، ﴿**وَاتَّقُواْ اللهَ**﴾ فيما أمركم به وافترض عليكم.[1]

في هذه الرواية جعلت الصبر على الثبات في الدين والقيام بتكاليفه، والمصابرة مع الأعداء المخالفين، فيكون الصبر الثاني مما يشق على النفس لذا احتاج إلى المصابرة و المرابطة مع الإمام المفترض الطاعة.

وفى رواية أخرى عنه ﴿اصْبِرُواْ﴾ على الأذى فينا، قلت: ﴿**وَصَابِرُواْ**﴾ قال: عدوكم مع وليكم، ﴿**وَرَابِطُواْ**﴾ قال: المقام مع إمامكم، ﴿**وَاتَّقُواْ اللهَ**

١-تفسيرنور الثقلين ج ١ سورةآل عمران ح٤٩٦.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قلت، تنزيل ! قال، نعم.[1]

وفي هذه الرواية جعلت الصبر والمصابرة والمرابطة مع الإمام عليه السلام.

فالصبر على الأذى الناجم من حب أهل البيت عليهم السلام وإتباع نهجهم، والمصابرة في مواجهة الأعداء مع وليهم وهو مما يحتاج إلى صبر أكثر، أما المرابطة فهي موضحة بالمقام والبقاء مع الإمام.

عن بريد عن أبى جعفر عليه السلام في قوله، ﴿اصْبِرُواْ﴾ يعنى بذلك عن المعاصي، ﴿وَصَابِرُواْ﴾ يعنى التقية، ﴿وَرَابِطُواْ﴾ يعنى الأئمة.[2]

أما هذه الرواية جعلت الصبر على المعاصي

١-تفسير نور الثقلين ج ١ سورة آل عمران ح٤٩٧.

٢-تفسير نور الثقلين ج ١ سورة آل عمران ح٤٩٨ .

والمصابرة هي التقية وسبب الاختيار واضح وهو أن خطر العدو أعظم من خطر المعاصي؛ لأن مفتاح المغفرة بيد الرحمن الرحيم الذي يقبل التوبة من عبده العاصي، بينما العدو لا يقبل من عدوه أي عذر ويتربص الفرص كي ينتقم من عدوه لذا كانت المصابرة بالتقية، أما المرابطة فمع الأئمة عليهم السلام.

في تفسير على بن إبراهيم قوله: ﴿**اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ**﴾، فإنه حدثني أبى عن ابن أبى عمير عن ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: اصبروا على المصائب، وصابروا على الفرائض، ورابطوا على الأئمة. (١)

في هذه الرواية نجد المصابرة مع الفرائض لأنها

١- الحويزي/ تفسير نور الثقلين/ ج ١ / سورة آل عمران/ ح ٤٩٩.

مما يحتاج إلى صبر أكثر في مقاومة الوساوس التي تلهي الإنسان حال الصلاة، ومقاومتها مما يشق على النفس ومما يدلل على ذلك طلب الاستعاذة بالله ثلاث مرات من شرها في سورة الناس، بينما في سورة الفلق كان طلب الاستعاذة بالله مرة واحدة من شرور مختلفة ، إن دل ذلك على شيء إنما يدل على عظم وخطر الوسواس فيصح عندئذ اختيار المصابرة التي تحتاج إلى صبر أكثر من الصبر ، هذا إذا كان الحال مع الفرائض المقصود بها مجموع الصلوات الواجبة، أما إذا كان المقصود من الفرائض كل ما فرض الله على ابن آدم فيكون أيضا اختيار المصابرة أولى من الصبر؛ لأن الصبر على مجموع الفرائض يحتاج إلى صبر أكثر من الصبر على مصيبة حادثة قد تزول في وقت قريب أو استجدت

لوقت ليس ببعيد.

حدثني أبي عن حماد بن عيسى عن إبراهيم بن عمر اليماني عن أبي الطفيل عن أبي جعفر عن أبيه علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: وقد ذكر عنده عبد الله بن عباس وأما قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ**﴾ الآية ففي أبيه نزلت وفينا، ولم يكن الرباط الذي أمرنا به وسيكون ذلك من نسلنا المرابط ومن نسله المرابط والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.[1]

وهنا أيضا يتضح أن المرابطة لا تكون إلا مع الأئمة عليهم السلام.

عن جعفر بن أحمد عن العمركي بن علي عن علي بن جعفر بن محمد عن أخيه موسى

١- الحويزي/ تفسير نور الثقلين/ ج ١ سورة آل عمران/ ح ٥٠١.

عن علي بن الحسين عليه السلام قال: ليس في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾، إلا وهي في التوراة يا أيها المساكين.[1]

السياق يدل على المقصود من خلال عرض الصفات أو الأحوال؛ ففي من لا يحضره الفقيه روى عبد العظيم بن عبد الله الحسني عن أبي جعفر محمد بن علي الرضا عليه السلام أنه قال، سألته ...قال عبد العظيم: فقلت: يا ابن رسول الله فما معنى قوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾؟ قال: العادي السارق والباغي الذي يبغي الصيد بطرا أو لهوا لا ليعود به على عياله، ليس لهما أن يأكلا الميتة إذا اضطرا، هي حرام عليهما في حال الاضطرار، كما هي حرام عليهما في حال الاختيار وليس لهما أن

١- الحويزي/ تفسير نور الثقلين/ ج/ ١سورة المائدة/ ح٧.

يقصرا في صوم ولا صلاة في سفر...»[1].

إن سياق الآيات الكريمة بينت صفات المضطر وهو الشخص غير الباغي وغير العادي، وهو سياق كاف لإبراز المعنى المقصود. كما أن كلمة (اضطر) من الاضطرار وهي الحاجة الشديدة للأكل، وقد أدت هذه الكلمة معنى وظيفي دقيق وبينت حالة الشخص على أن حالته شديدة العسر وغير اعتيادية بحيث لو لم يأكل الأكل المحرم سيهلك وسيخسر نفسه. ولكي تكتمل الصورة ويبرز المعنى بشكل دقيق أتت الآيات بالوصف لحالة المضطر.

وهنا يأتي دور أهل البيت عليهم السلام في إبراز المعنى السياقي لمثل هذه الآيات فقالوا: إن المضطر

١- الحويزي/ تفسير نور الثقلين/ سورة المائدة/ ح١٨.

شخص غير عابث أو لاهٍ بالصيد، ولا سارق يريد أن يحصل على المال، وكل هذه الصفات المحددة لم تأت عبثاً أو كمثال عابر؛ بل أتت متناسبة مع سياق الآيات الكريمة والأهم مناسبة للمعنى الوظيفي للاضطرار.

السياق القرآني والفروق اللغوية

قد يستعمل البعض كلمات يريد بها شرح أو تعريف لكلمة واحدة، من غير التفكير بوجود فوارق لغوية بين الكلمات، والسبب واضح هو تعود اللسان على مثل هذا الأسلوب من التعبير. وإن أكثر من يقع في مثل هذا الخطأ هم أهل الصناعة الأدبية من الشعر والنثر وذلك لمراعاة القوافي أو لكثرة استخدامهم للمحسنات البديعية كالترصيع والسجع.

لكـن عندمـا نرجـع إلى كتـاب الله الحكيـم نـرى الدقـة العاليـة في اختيـار الألفـاظ، ولأننـا نعتقـد أن القـرآن الكريـم هـو كتـاب منزه عـن اللهو والحشـو، ممـا يثبـت ذلـك أن لـكل كلمـة مرادفـة معنـى خاص ومحـدد يختلـف عـن مثيلاتهـا في المعنـى، و إثباتنـا لهذا الجانـب هو إثبات لبلاغة القـرآن وإعجازه في التعبير.

ولتوضيح المعنى نذكر مثال بسيط:

للشـكر مفردات كثـيرة : كالحمد والثنـاء والمدح، وقـد تطلق كل مفـردة ويراد بها الأخـرى؛ لكن عندما نـأتي للفـروق اللغويـة الدقيقـة نجـد أن لـكل كلمـة معنـى مختلـف واسـتخدام محـدد، فالشـكر لا يكـون إلا في حـال الرخـاء بينـما الحمـد يكـون في الحالتين في الرخـاء و الشـدة . والثنـاء يكـون بتعمـد مـن المثنـي سـواء بخير أو شر بحسـن أو قبيح أمـا المدح لا يكون

إلا بكلام حسن. والعامل الوحيد لمعرفة المعنى الدقيق هو السياق، فعندما يتم رصف الكلمة ضمن مجموعة كلمات وجمل سيتمكن السامع أو القارئ من معرفة المعنى الدقيق لكل الكلمات.

مثال آخر:

كلمة (خلق): لها مترادفات كثيرة كـ: أنشأ، صور، ركب. و لكل كلمة معنى عام متساوي تقريباً وهو إحداث هيئة جديدة.

إلا أن لكل كلمة فروق لغوية أدق تجعلنا نستعمل كل لفظة في مكانها المناسب، وبالتالي تعطي كل كلمة وظيفتها المتناسبة في السياق. ولأهل البيت عليهم السلام دور كبير في إبراز هذا النوع من الفروق ذكرنا بعض منها في الأمثلة السابقة وسنذكر هذه الرواية لزيادة التوضيح:

حدثنا أحمد بن جعفر عن عبد الله المحمدي قال: حدثنا كثير بن عياش عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ**﴾[1] قال: أما ﴿**خَلَقْنَاكُمْ**﴾ فنطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما ثم لحما، وأما ﴿**صَوَّرْنَاكُمْ**﴾ فالعين والأنف والأذنين والفم واليدين والرجلين، صور هذا ونحوه ثم جعل الدميم والوسيم والجسيم والطويل والقصير وأشباه هذا.[2]

فانظر في قول الإمام عليه السلام كيف فصل الفرق بين الكلمتين وبين مراحل الخلق ومراحل التصوير وكيف أن التصوير يأتي بعد مرحلة الخلق، فسبحان الله خلاق

١- الأعراف آية ١١

٢- الحويزي/ تفسير نور الثقلين/ ج٢/ سورة الأعراف/ ح١٧

الخلائق الذي أودع سر خلقه عند أشرف خلقه.

وبعد ذكر هذه الرواية يتبين لنا أن كل كلمة في السياق القرآني هي مقصودة لذاتها ليس للتصنع وإظهار البراعة في الكلام، كما يفعل أهل البلاغة والأدب.

السياق ودقة الاستعمال

قد يفسر السياق ما يتوقع أنه من الزيادة، فقد ترد جملة أو كلمة لا تعطي معنى جديدا عند العامة من الناس أو يتصور من الجملة أو الكلمة أو حتى الآية الزيادة، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، التي وردت في الآية الكريمة :﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.[1]

١- سورة آل عمران، الآية: ٣٦.

فقد ورد في تفسير هذه الآية عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد وعلى بن إبراهيم عن أبيه جميعا عن ابن محبوب عن ابن رئاب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله أوحى إلى عمران أنى واهب لك ذكرا سوياً مباركاً يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بأذن الله، وجاعله رسولا إلى بني إسرائيل، فحدث عمران امرأته حنة بذلك وهى أم مريم، فلما حملت كان حملها [بها] عند نفسها غلام، فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى وليس الذكر كالأنثى، ولا تكون البنت رسولاً، يقول الله عز وجل: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ فلما وهب الله لمريم عيسى كان هو الذي بشر به عمران، ووعده إياه، فإذا قلنا في الرجل منا شيئا فكان في ولده أو ولد ولده فلا تنكروا ذلك.

يتبين من الرواية أن هناك قصة كاملة اختصرت في كلمات قليلة لتدلل على إعجاز القرآن الكريم و إيجازه، فلا يمكن أن ترد كلمة في القرآن إلا ولها وظيفة معينة نتوصل إليه من شرح أهل البيت عليهم السلام لسياق الآيات وبيان المعاني الوظيفية.

وأيضا من دقة الاستعمال في القرآن الكريم للألفاظ نجد السياق نفسه يبين سبب ورود الألفاظ أو الآيات ، وكذلك أهل البيت عليهم السلام نرى أنهم أيضا يفسرون سبب إيراد هذا الشكل من السياق أو هذه الآيات ومثال ذلك قصة نبي الله زكريا عليه السلام.

فقد ورد في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن زكريا لما دعا ربه أن يهب له فنادته الملائكة بما نادته به أحب أن يعلم

أن ذلك الصوت من الله أوحى إليه: أن آية ذلك أن يمسك لسانه عن الكلام ثلاثة أيام، قال: فلما أمسك لسانه ولم يتكلم علم أنه لا يقدر على ذلك إلا الله، وذلك قول الله: ﴿**قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً**﴾[1].

أي أن أهل البيت عليهم السلام في تفسيرهم لسياق الآيات بينوا سبب ذكر قوله تعالى: ﴿**رَبِّ اجْعَل لِّيَ**﴾[2].

فعند قراءة سياق الآيات سنعلم لما طلب زكريا عليه السلام من ربه الآية؟

قال تعالى: ﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ، قَالَ رَبِّ أَنَّى**

١- سورة آل عمران، الآية: ٤١.

٢-تفسير نور الثقلين ج ١سورة آل عمران ح١٢٥و١٢٦

يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾.[1]

فطلب عليه السلام الآية؛ لأن لصدور الصوت من الملائكة، ولوجود العوائق الحائلة دون الإنجاب.

١- سورة آل عمران، الآية: ٣٩- ٤١.

بيان المعنى الوظيفي للكلمة

وفي هذا المثال يتضح أحد فوائد التفسير السياقي والوظيفي وهو بيان العلل الشرعية.

عن سعد بن عبد الله عن أحمد ابن أبى عبد الله البرقي عن محمد بن علي عن محمد بن أحمد عن أبان بن عثمان عن إسماعيل الجعفي قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: إن المغيرة يزعم إن الحائض تقضي الصلاة كما تقضي الصوم، فقال: ما له لا وفقه الله، إن امرأة عمران قالت: ﴿**رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً**﴾، والمحرر للمسجد لا يخرج منه

أبداً، فلما وضعت مريم قالت ربي إني وضعتها أنثى وليس الذكر كالأنثى فلما وضعتها أدخلتها المسجد، فلما بلغت مبلغ النساء أخرجت من المسجد، أنى كانت تجد أياما تقضيها وهي عليها أن تكون الدهر في المسجد. [1]

يقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿**فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾. [2]

نلاحظ أن الإمام عليه السلام فسر سياق الآية من خلال بيان المعنى الحقيقي لكلمة (محررا)، فهذه الكلمة أدت معنى وظيفي حين تم رصفها في الجملة وهو المعنى الذي استخرجه الإمام عليه السلام

١- الحويزي/ تفسير نور الثقلين/ ج ١/ سورة آل عمران/ ح١١١.
٢- سورة آل عمران، الآية:٣٦.

من الآية، وهو أن المحرر لا يخرج من المسجد.

بينما لو وقفنا على معنى الكلمة اللفظي (اللغوي) نجد أن المحرر كلمة مأخوذة من الحر وهو: ما خالف العُبودِيّة وبَرئ من العيب والنَّقص.[1]

وهذا المعنى لم نتوصل إليه من خلال سياق الآية. بل سياق الآية يبرهن لنا من الذي يستطيع أن يكون (محرراً)، فعندما ذكرت الآية ﴿**فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى**﴾، كانت هذه الآية قرينة تؤيد المعنى الوظيفي الذي اختاره الإمام عليه السلام، والمحرر الذي لا يخرج من المسجد بل يبقى فيه إلى الأبد وليس المحرر بمعنى الحر المخالف للعبد وإلا فإن الحرية تكون للمرأة مثلما تكون للرجل.

١- ابن فارس/ معجم مقاييس اللغة/ باب الحاء/ كلمة الحر.

السياق يحدد المعنى الخاص دون العام

قد يكون سياق الآية للوهلة الأولى سياق يدلل على أنه سياق عام، لكن عندما نرجع إلى روايات أهل البيت عليهم السلام يتضح أن الآية كانت تريد المعنى الخاص وليس العام وسياق الآية الكريمة يدلل على صحة روايات أهل البيت عليهم السلام ويؤكد أن لكل سياق معنى وظيفي معين.

ومن أوضح الأمثلة نذكر قول الله تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾،

البعض يجعل كل مكروب يمسه الضر هو مضطر، وذلك عند الأخذ بظاهر الآية، إلا أن السياق في حقيقة الأمر لا يريد المعنى الظاهر العام بل يريد المعنى الخاص وهو المعنى الحقيقي، فالمضطر الذي سيجيبه الله تعالى هو من يصلح لخلافة الأرض، قال تعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾.[1]

فلو تتبع القارئ السياق وتمعن فيه بإمعان لكان له المعنى. لذا ورد في تفسير علي بن إبراهيم : وقوله عز وجل ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ**﴾؛ فإنه حدثني أبي عن الحسن بن علي بن فضال عن

١- سورة النمل، الآية: ٦٢.

صالح بن عقبة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نزلت في القائم من آل محمد عليهم السلام، هو والله المضطر إذا صلى في المقام ركعتين ودعا إلى الله عز وجل، فأجابه ويكشف السوء ويجعله خليفة في الأرض.

أيضاً مثال آخر: يطلق أغلب أهل اللغة «البهيمة» على جميع الدواب من غير تخصيص. ففي لسان العرب يذكر أن البَهِيمةُ بكسر الهاء، كلُّ ذاتِ أَربَعِ قَوائم من دَوابّ البرِّ والماء.

والبَهْمةُ مع تسكين الهاء، الصغيرُ من أَولاد الغَنَم الضأْن والمَعَز والبَقَر من الوحش وغيرها، الذكَرُ والأُنْثى في ذلك سواء.

وقال الزجاج في قوله عز وجل: أُحِلَّتْ لكم بَهِيمة الأَنْعامِ؛ وإنما قيل لها بَهِيمةُ الأَنْعامِ لأَنَّ كلَّ

حَـيٍّ لا يَميِّـز، فهـو بَهِيمـة لأَنـه أُبْهِـم عـن أَن يميِّز.

بـل هنـاك مـن خصـص البهيمـة كثعلـب في نَـوادِره: إذ يفـسر البَهْـمُ بصِغـارُ المعَـز.

في حين تسـتخدم كلمـة بهم بجميع اشـتقاقاتها في المـوارد التالية :

طريقٌ مُبْهَمٌ إذا كان خَفِيّا لا يَسْتَبين.

البُهُـم، بالضـم، جمـع البَهِيم وهو المجهـول الذي لا يُعْرَف.

والبُهْمـةُ، بالضـم الشـجاع، وقيـل: هـو الفارس الـذي لا يُـدْرَى مـن أَيـن يُؤتـى له من شـدَّة بأْسِـه.

وقيـل للإِصْبَـع إِبْهامٌ لأَنهـا تُبْهِم الكـفّ أَي تُطْبِقُ عليها .

وليلٌ بَهيم: لا ضَوء فيه إلى الصَّباح.

وأبْهَمْت البابَ: أَغلَقْته وسَدَدْته.

وحائط مُبْهَم: لا باب فيه.

واسْتَبْهَم الأَمْرُ إذا اسْتَغْلَق، فهو مُسْتَبْهِم.[1]

إلى غير ذلك من اشتقاقات الكلمة فالمعنى الجامع بينها هو الستر وعدم التمييز.

أي عندما نريد استعمال كلمة (بهيمة) لا ينبغي النظر إلى جانب من معناها العام وإغفال المعنى العام الآخر.

وقد ورد مسمى (بهيمة الأنعام) في القرآن الكريم ثلاث مرات:

في قوله تعالى: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ**

١- ابن منظور/ لسان العرب/ باب الباء/ كلمة(بهم).

﴿الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾.[1]

فهذه الآية تتحدث عن الحج ومنافعه الدنيوية والأخروية وأن على الحاج أن يذكر الله في تلك الأيام على ما رزقه من بهيمة الأنعام، وبهيمة الأنعام في هذه الآية هي: الماشية من البقر و الإبل و الغنم و الضأن. وسميت بهيمة لعدم تمييزها، ولا يدخل ضمن الآية الأجنة؛ لأنها لا تذبح في الحج.

والمقصود منها الأزواج الثمانية التي وردت في قوله تعالى:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ...﴾.[2]

والأزواج الثمانية هي في قوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ

١- سورة الحج، الآية: ٢٨.

٢- سورة الزمر، الآية: ٦.

أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ،وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَـذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[1]

الضأن زوجين، والمعز زوجين، والإبل زوجين، والبقر زوجين، فالمجموع ثمانية أزواج، وورد التعبير بزوجين بدل زوج للتأكيد على حلية الإناث منها كحلية الذكور في الأكل، فللأنثى ذكر وللذكر أنثى فكل واحد منهما

١- سورة الأنعام، الآية: ١٤٣، ١٤٤.

يعبر عنه بزوج.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾.[1]

ويقصد بهذه الآية نسك الذبح، فيكون المعنى من (بهيمة الأنعام) هي الأزواج الثمانية السابقة الذكر.

أما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.[2]

عندما نرجع إلى روايات أهل البيت عليهم السلام في تفسير بهيمة الأنعام نجد أنهم يخصصونها

١- سورة الحج، الآية: ٣٤.

٢- سورة المائدة، الآية: ١.

ويعينونها بالأجنة التي في بطون الأنعام، وهو تفسير مختلف عن الآيتين السابقتين، وهو أيضا يوافق المعنى الجامع المستخرج من استعمالات كلمة (بهم) بجميع اشتقاقاتها، فالجنين في بطن أمه مخفي ومستور، كذلك لا يستطيع التمييز. وإضافة الأنعام إلى البهيمة فيه مزيد من التخصيص لينفي كل البهائم ويخصص الأنعام فقط.

نذكر بعض الروايات:

في الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمر بن أذينة عن محمد بن مسلم قال: سألت أحدهما عليه السلام عن قول الله عز وجل: **﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾** ؟

فقال: الجنين في بطن أمه إذا أشعر وأوبر

فذكوته ذكوة أمه، فذلك الذي عنى عز وجل.

وفي تفسير العياشي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾، قال: هي الأجنة التي في بطون الأنعام، وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يأمر ببيع الأجنة.[1]

فكلمة (بهيمة) وكلمة (أنعام) أدت كل منها معنى وظيفي في الآية وأن وجود كل كلمة كان لحكمة معينة هو إبراز المعنى المقصود بدقة.

كما أن سياق الآيات كان يعني بالضبط المعنى الذي فسره أهل البيت عليهم السلام بدليل أن الآيات التي لم تقصد الأجنة التي في بطون الأنعام كانت تصفها بالأنعام فقط بدون إضافة بهيمة ، كقوله تعالى:

١- الحويزي/ تفسير نور الثقلين/ ج ١/ سورة المائدة/ ح١٠ و ١١.

﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.[1]

سياق الآيات يتحدث عن الأنعام غير الأجنة، بدليل أن الإنسان يستطيع أن يحمل عليها أثقاله وأن يتخذ من شعرها أو وبرها الفرش.

وقوله تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.[2]

سياق هذه الآية أيضا يقصد الأنعام غير الأجنة منها، بدليل كلمة (المنافع)، فالأجنة الصغيرة لا تعطي اللبن ولا تحرث الأرض ولا يمكن الاستفادة منها في صناعة اللباس لصغر سنها، غير أننا نستطيع أكل لحومها.

١- سورة الأنعام، الآية: ١٤٢ .

٢- سورة النحل، الآية: ٥.

إلا أن كلمات الآية مرة أخرى أدت معنى وضيفي بتخصص الأنعام غير الأجنة، وذلك من خلال طرح ثلاث مواصفات لهذه الأنعام وهي إعطائها الدفء والمنافع العديدة والأكل من لحومها، في حين لا تتوفر في الأجنة سوى صفة واحدة.

وأيضا هناك قرينة تشير إلى المعنى الذي قصده أهل البيت عليهم السلام وهي لفظة (أحلت) ومن المؤكد أن تكون الآية لا تعني الأنعام التي تذبح في موسم الحج وغيره؛ لأن الحلية كانت موجود من قبل في سورة الأنعام، وسورة المائدة متأخرة في النزول عنها فهي آخر ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فانظر كيف أن السياق قد أدى معنى وظيفي بتحديد هوية الأنعام الحقيقية.

السياق يظهر عدم الإطلاق

هناك آيات يعتقد البعض أنها مطلقة غير مقيدة، كقوله تعالى: ﴿وعصى آدمُ ربَّهُ فَغَوى﴾، والقول بأن آدم يمكن أن تصدر منه المعصية في أي وقت؛ بسبب عدم التأمل في الآيات الأخرى، والحكم على سياق آية واحدة، في حين أن الرواية تظهر غير الإطلاق بل تخصيص الإطلاق وهو العصيان في الجنة فقط لا على الأرض.

فقد ورد في عيون الأخبار في مجلس للرضا عليه السلام عند المأمون مع أهل الملل والمقالات وما أجاب به

علي بن محمد بن الجهم في عصمة الأنبياء صلوات الله عليهم حديث طويل يقول فيه الرضا عليه السلام: «إما قوله عز وجل في آدم عليه السلام، ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[1]، فإن الله عز وجل خلق آدم حجة في أرضه، وخليفة في بلاده، لم يخلقه للجنة، وكانت المعصية من آدم عليه السلام في الجنة لا في الأرض، وعصمته يجب أن تكون في الأرض ليتم مقادير أمر الله عز وجل، فلما أهبط إلى الأرض وجُعل حجة وخليفة، عُصم بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.[2] »[3]

١- سورة طه، الآية: ١٢١.

٢- سورة آل عمران، الآية:٣٣.

٣- الحويزي/ تفسير نور الثقلين/ ج ١/ سورة آل عمران/ ح٩٧ .

إفادة الترتيب في وقوع الأحداث

للآيات القرآنية تأثير عجيب بحيث تنساق الأذن وراءها فتدرك سحر المعاني كما تمسك بيد العقل لتوصله للحقائق بكل يسر وسهولة، وهذا بحد ذاته إعجاز لا دخل لصوت القارئ فيه، فما هو السر الذي يجعلنا نُصر على سماع الآيات القرآنية؟

لقد أودع الله تعالى كتابه الحكيم أسرار عديدة كل ذلك من أجل جذبه إلى السبيل الصحيح

وهدايته وانتشاله من الظلال. ومن بين هذه الأسرار الترتيب في طرح السياق القرآني للآيات وبالخصوص في قصص الأقوام السالفة، وفيما يتعلق بالأمور التي تحتاج إلى وصف.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا* وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا**﴾[1].

وهذه الآيات الكريمة في معرض وصف لأحداث يوم القيامة وهذه الأحداث متسلسلة في وقوعها تجذب الأذان لسماعها وترهب القلوب بأهوالها.

ولترتيب السياق وتسلسله فائدة أخرى هي الأهم فبدونها لن نستطيع فهم الآيات القرآنية فمثلاً: يقول تعالى: ﴿**وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا**﴾[2]، هي

١- سورة الزلزلة، الآية: ١-٣.

٢- سورة الزلزلة، الآية: ٣.

آيـة معلومـة لدينا لوجـوده ضمن سـياق مرتب، لكن لـو اقتطعت عن سـياقها السـابق!

فسنسأل : لما يتساءل الإنسان يوم القيامة ؟

لكن عندما نقرأ: ﴿**وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا**﴾[1]، فسوف نعلم سبب التساؤل؛ وهو أن الأرض أصبحت تخرج كل ما فيها لهذا الإنسان وهو في تساءل وحيرة.

وكـذا لـو اقتطعنـا قولـه تعـالى: ﴿**وَأَخْرَجَـتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَـا**﴾ عـن سـياقه السـابق، فسنسـأل: لمـا تُخـرج الأرض أثقالها ؟ وهكـذا...

فعندما يكون السـياق مرتـب في وقوع الأحداث فسـيكون المعنـى لدينا معلومـاً وواضحاً، وسينشـغل الذهـن بماذا سـيحدث بعد؟

١- سورة الزلزلة، الآية: ٢ .

تكرار اللفظ لا يعني تساوي المعنى

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.[1]

وردت كلمة اصطفاك في الآية الكريمة مرتان فما معنى كل واحدة؟

لنرى كيف يفسر أهل البيت عليهم السلام هذه الآية، يقول أبو جعفر عليه السلام في معنى الآية: «اصطفاك من ذرية الأنبياء، وطهرك من السفاح، واصطفاك لولادة عيسى من غير فحل وزوج».[2]

١- سورة آل عمران، الآية: ٤٢.
٢- الحويزي/ تفسير نور الثقلين/ ج ١/ سورة آل عمران ح١٣٠.

بالفعل لكل كلمة في السياق القرآني وظيفة معينة حتى لو تشابهت في المعنى، وقد أعطى الإمام عليه السلام في الرواية السابقة لكل كلمة تفسير يناسب سياق الآيات السابقة.

فمعنى كلمة «اصطفاك» الأولى كما يقول الإمام عليه السلام: أي اصطفاك من ذرية الأنبياء، وهذا المعنى مأخوذ من السياق السابق للآية السابقة، أي من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾.[1]

وهذه الآية تتحدث عن نوعين من الاصطفاء:

١- **اصطفاء فردي**: ويشمل آدم ونوح عليهما السلام.

٢- **اصطفاء جماعي**: ويشمل آل إبراهيم وآل عمران.

وسر الاصطفاء لهذه المجموعة من الأنبياء هو

١- سورة آل عمران، الآية: ٣٣، ٣٤.

بسبب التماثل في صفات الفضيلة والكمال.

كما نلاحظ أن البعض حصل أيضا على اصطفاء الذرية والبعض الآخر لم يحصل كآدم ونوح عليهما السلام؛ والسبب لأنه لم تكن لذريتهم صفات الفضيلة والكمال.

أما كلمة «اصطفاك» الثانية، فهي مأخوذة من سياق الآيات التي بعدها، وهي قوله تعالى: **﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَّ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾**.[1]

وهو الاصطفاء الثاني والوحيد الموجود في السورة وهو ما يناسب قول الإمام عليه السلام عندما قال في تفسير الآية: واصطفاك لولادة عيسى من

١- سورة آل عمران، الآية: ٤٥.

غير فحل وزوج.

وإن هذا الاصطفاء يحتاج لحمله استخدام أو إطلاق لفظ البشارة؛ لأنها ولادة غير طبيعية، وباختصار هي كلمة من الله سبحانه وتعالى تمثلت في المسيح عليه السلام. وما يزيد البشارة أو الاصطفاء شرفاً هو كون المسيح عليه السلام من الوجهاء والمقربين عند الله في الدنيا والآخرة.

إذن؛ لكل كلمة في الآيات دلالة معينة ومعنى وظيفي نستشفه من خلال سياق الآيات القرآنية سواء كانت في نفس الآية أو في غيرها من الآيات الكريمة كما أشرنا سابقا.

فلفهم الآيات القرآنية لا بد من تكامل القرائن، ولا شك أن للسياق دور كبير في فهم النص القرآني

ولكـن لا يعني هـذا إلغـاء القرائن الأخرى فالسـياق يشـكل قرينـة لفظيـة وهنـاك قرائـن أخـرى كالقرائن المنفصلـة (أسـباب النـزول) لهـا دور كبـير أيضـا في اسـتنطاق النص وتفسـيره.

كـما أن للبيـان المعصـوم (الروايـات) الكلمـة الفصـل في كثير مـن الموارد والمثـال الواضـح ما ذكره البعـض في كتب التفسـير عـن قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[1]، فقـد استشـهد البعـض بالسـياق عـلى إدخـال زوجـات النبـي صـلى الله عليـه و آلـه، ولـو سـلمنا بذلـك فـإن البيـان المعصـوم واضـح.

روى في الواحدي عن عطية عن أبي سعيد في قوله تعـالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ**

١- سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ قال: «نزلت في الخمسة في النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلي و فاطمة و الحسن و الحسين»[1].

وفي كثير من الأحيان نكون بحاجة إلى التروي لاستظهار المعنى من خلال القرائن المتعددة سواء اللفظية أم غيرها، ففي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾[2] قد يستظهر البعض أن المراد منها هي عقود البيع المرتبطة بالبيع والشراء وما إلى ذلك بالقرينة اللفظية السياقية الواردة في الآية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾**.[3]

١- الواحدي - أسباب النزول ص٢٩٥.

٢- سورة المائدة، الآية:١.

٣- سورة المائدة، الآية: ١.

لكن لا بد من التأني ومراجعة القرائن المنفصلة كأسباب النزول فإن هذه الآية كما هو معروف نزلت في يوم الغدير قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**﴾[1]، فتكون لآية العقود ظهور في هذا المعنى.

فعن الحسين بن محمد بن عامر عن المعلى بن محمد البصري عن ابن أبي عمير عن أبي جعفر الثاني عليه السلام في قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ...**﴾، قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عقد عليهم لعلي صلوات الله عليه بالخلافة في عشرة مواطن، ثم أنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ التي عقدت عليكم لأمير المؤمنين عليه السلام.[2]

١- سورة المائدة، الآية: ٣.

٢- الحويزي/ تفسير نور الثقلين/ ج ١/ سورة المائدة/ ح٩.

في الختام

لقـد فتـح التفسـير السـياقي والوظيفـي عند أهل البيـت عليهم السلام أبوابا مـن المعرفة فهـو أداة من الأدوات التـي لا غنـى للمفـسر عنهـا. وسـعينا لامتلاك سـائر الأدوات والمفاتيح التي تسـهم في فهـم القرآن الحكيم غايتنـا الكبرى.

وإن اعتـماد روايـات أهـل البيت عليهم السلام في تفسـير القـرآن الكريم و النظـر فيها بتمعن وتأمـل بالإضافة إلى التدبـر في آيـات الله عـز وجل هي الـسر الكامن في

المعرفة الحقيقية لكتاب الله تعالى، لذا نأمل من المولى القدير أن يكون هذا العمل البسيط بداية لبحوث عميقة في منهج التفسير السياقي والوظيفي لأهل البيت عليهم السلام، بل وفي كافة مناهجهم في التفسير.

وفي الختام نسأل الله عز وجل التوفيق والسداد لنا ولجميع الساعين في بحوث وعلوم القرآن الكريم.

الفهرس

المقدمة ٧

التعريف و التوصيف ٩

نظرة في النشأة ١٣

قبل التأمل في السياق ٢١

التفسير السياقي والوظيفي ٢٥

التفسير السياقي الخاص ٢٩

السياق المعجمي ٣١

١- سياق يبن مرادف الكلمة أو الآية ٣١

٢- سياق يعطي تضاد الكلمة ٣٤

سياق المثال و التشبيه ٣٩
سياق المعنى الواحد والمعاني المتعددة ٤٤
السياق القرآني والفروق اللغوية ٥٥
السياق ودقة الاستعمال ٦١
بيان المعنى الوظيفي للكلمة ٦٦
السياق يحدد المعنى الخاص دون العام..... ٦٩
السياق يظهر عدم الإطلاق ٨١
إفادة الترتيب في وقوع الأحداث ٨٢
في الختام ٩٣